أبو العباس السفاح والخلافة العباسية

وقد شرع نظام الحكم الجديد الآن فى استئصال كافة آثار الحكم البائد، فأخذ يتعقب البقية الباقية من الأسرة الأموية ويذبحهم ذبحا.

«أنتونى ناتنج»

obeikandl.com

obeikandl.com

الحديث عن أبي العباسي عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح، ينقلنا إلى عصر جديد بعد انتهاء عصر بني أمية يمثل آخر خلفائهم مروان بن محمد .

وقد كان عصر هذا الخليفة العباسي عصر ملىء بالدماء والضحايا والأشلاء، دون أن يحكم شرع الله فيما يفعل، ودون أن يشاور أحدًا، مع أن الشورى من أساسيات العدل الإسلامي.

وقد ساعد على قيام الخلافة العباسية التى تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب عن الرسول ﷺ، ساعد على قيام هذه الخلافة أن خلفاء بنى أمية كانوا يستهترون بقيم الدين الحنيف، وانتشر الفساد، وبدأ بعض الخلفاء يحتسى الخمر، ويقضى معظم وقته فى الصيد غير مبالين بمصالح الناس.

لقد بدأت الدعوة لبنى العباسى فى (الحُميمة) فى جنوب الشام..، وبدأ يتعاطف معها محبو آل البيت، وناصرها الفرس، لأن الخلافة الأموية كانت تفضل العرب على الفرس، متناسين أن الإسلام لا يفرق بين عربى وأعجمي إلا بالتقوي.

وظل الموالى يعانون ظلم بنى أمية زمنًا طويلاً، مما دعاهم إلى الدعوة لمناهضة الحكم الأموي.، وعندما تولى أبو مسلم الخراسانى الدعوة فى خراسان، وكان يمتلك الذكاء والدهاء والقدرة على القيادة، مما سهل السبيل لانتشار الدعوة لإسقاط الحكم الأموي، واستبداله بحكم العباسيين، واتخذوا شعارًا لدعوتهم الأعلام السوداء، واستطاع أبو مسلم أن يهز الكرسى

الذى يجلس عليه نصر بن سيار وإلى الأمويين على خراسان، وأخذ نصر بن سيار يراسل مروان بن محمد الخليفة الأموى ليتدارك الأمر، وكذلك استنجد بابن هبيرة واليه على العراق، ولكنه لم يجد إلا رجع الصدي....

كانت الدولة الأموية مشغولة بحروبها مع الخوارج، كانوا يرسلون له من النجدات ما يستطيع به أن يوقف زحف الدعوة العباسية فى خراسان.، ولكن لم يجد لنداءاته صدى بحجة الحرب ضد أعداء الخلافة الأموية فى العراق والشام.

ويلخص لنا الدكتور حسن حبشى فى كتابه (تاريخ العالم الإسلامي) خلافة آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد، وقيام الدولة العباسية بقوله:

«بويع مروان بن محمد فى صغر سنه سنة سبع وعشرين ومائة، ولكن مبايعته لم تستطع أن تضع نهاية للمأساة التى بدأت توشك أن تقضى على الأمويين: حكامًا وقادة، على أن الحق يقتضينا- ويقتضى كل منصف - أن تقول إن مروان بن محمد تولى الخلافة فى ظروف عصيبة قاتمة، أهون ما فيها مبايعة أهل الكوفة بالخلافة لعبد الله بن معاوية من حفدة جعفر بن أبى طالب... واغتنم أبو مسلم الخراسانى الفرصة للوقيعة بين الجميع، وبدت الخلافة الأموية وكأنما قد أصيبت بالشلل، فلم تمد ابن سيار بالعون حين استمد منها العون، ولم تأخذ بتحذيره إياها مما يحوطها ويهددها من أخطار، حتى أنه كتب إلى مروان يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار

ويوشك أن يكون له ضرام

فإن لم يطعها عقلاء قوم

يكون وقودها جثث وهام

وإن النار بالعودين تذكي

وأن الحرب أولها الكلام

فقلت من التعجب ليت شعرى

أأيقاظ أمية أم نيام

فإن يك أصبحوا وثووا نياما

فقل : قوموا فقد حان القيام

فما حرك ذلك ساكنًا من بنى أمية، ولا نبه غافلا، فلا عجب أن أخذوا بغفلتهم... ويأخذ ربك القرى وهى غافلة.

ويقول المؤرخ حسن حبشى أيضًا :

ولقد شجع هذا التراخى الأموى رجلاً كإبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس على أن يأمر أبا مسلم الخراسانى أن يظهر الدعوة لبنى العباس بين أهل خراسان، وأن يدعوهم بالمجاهرة بلبس السواد شعارًا يعرف به المؤيد

لهم من غيره وامتثل أبو مسلم، وبعث دعاته فى الناس هناك، واستجابت له الغالبية القوية وظهر أمره، حتى قيل أنه أتاه فى يوم واحد أهل ستين قرية واستفحل أمر الدعوة، واستغلظ عودها، واتخذ الدعاة من خراسان مركزًا لهم يصدر منه الدعوة، وأصبح هذا البلد يهدد الكيان الأموى».

وتمضى الأحداث.، وتنجح الثورة ضد الأمويين، ويقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى مصر..، عند بوصير من بلدان الصعيد فى أواخر سنة ١٣٢ هـ .

وهكذا تمكن العباسيون من إقامة الخلافة العباسية، واتخذ السفاح الهاشمية مقرًا للحكم، إلى أن تمكن أبو جعفر المنصور من أن يبنى فيما بعد عاصمة الخلافة العباسية وهى بغداد.

★★★

لقد بويع عبد الله بن محمد الملقب بأبى عباس السفاح بالخلافة فى الكوفة فى ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ .

وكان من الممكن أن يبدأ هذا الرجل حكمه بالعدل، ويشعر الناس أنهم فى عصر جديد، وأنه جاء ليخلصهم من حكم الأمويين الظالم، ويبدأ بصفحة جديدة، ليشعر الناس فى زمنه بالأمن والأمان، ولكنه على غير ما توقع الناس، بدأ عهده بالحديد والنار، وإرهاب الناس، والتنكيل بأعدائه من بنى أمية بصورة فاقت كل أنواع الظلم والإرهاب ، بل بلغ الحمق وهو يصفى حساباته مع أعدائه من بنى أمية، أن

يخرج جثث خلفاء بنى أمية من القبور، ويشعل فيها النار، دون مراعاة لحرمة الموتي!!

ولنقف قليلاً أمام ما كتبه الأستاذ إبراهيم الإبيارى فى كتبه (قيام دولة) عن الفظائع الذى ارتكبها أبو العباس السفاح أو بمعنى أصح عن بعض هذه الفظائع :

لقد سفك الأمويون ما سفكوا من دم، وهم يملكون عليها حجة أو شبه حجة .

فلقد ثأر بهم الهاشميين فانتقموا من هؤلاء الثائرين بهم، انتقامًا لا تبرئته من الإسراف هو الآخر، ولكنهم ملكوا بثورة الهاشميين بهم حجة لهم.

ولكنا ما نظن أن هؤلاء الذين قتلهم أبو العباس كانوا قد تهيئوا لثورة أو اجتمعوا لفتنة، بل نراهم قد اجتمعوا حول أبى العباس يظهرون الطاعة وقد يكونون قد أخفوا غيرها وما كان لوالٍ أن يأخذ الناس بما تخفى السرائر وتجن الضمائر وإلا كان آثمًا إن فعل إثمًا فى ذات نفسه حين يحملها تلك الأوزار التى وراءها عقاب من الله شديد، وإثمًا فى حق أمته حين يتيح لها تلك القدوة السيئة لتضطرب أمورها ولا تستقيم لها حال .

ولكنى مع هذا لم أكن أسيغ هذا اللقب الذى خلعه الناس على أبى العباس وأضافوه إليه، فلأبى العباس أن يثأر ظالمًا فيبوء بوزر الظالمين، ويحمل إثمهم، ولأبى العباس أن يأمر بتسعين رجلاً من أشراف بنى أمية أبرياء إلا من جرائر للآباء

فيقتلوا فيقال: رجل موتور أراد أن يأخذ بوتره، لا يعينه على من يقع الوتر، ويقال: رجل أراد أن يحمى سلطانه، ولم يشأ أن يكلف نفسه عناء الحيطة، وقد تخونه الحيطة فيفلت منه هذا السلطان وهو غافل. ولكنى حين رأيت أبا العباس يعود بالثأر إلى شىء أمرٍّ من الثأر، ويبعد فى الإسراف بالقتل إلى ما هو أشد فكرًا من الإسراف فى القتل، أصبحت أُسيغ هذا اللقب الذى خلعه الناس على أبى العباس وأضافوه إليه .

يروى الرواة مجمعين أن أبا العباس دعا بالفداء حين قتل هؤلاء الأشراف، الذين كانوا تسعون رجلاً، وأمر ببساط فبسط عليهم وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته !! فلما فرغ من الأكل قال : ما أعلمنى أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسى منها !

ثم لما فرغ من هذا قال : جروا بأرجلهم فألقوهم فى الطريق يلعنهم الناس أمواتًا كما لعنوهم أحياء!!

ويقول الراوي: ولم يكن بعيدًا عن هذا كله، فرأيت الكلاب تجر بأرجلهم وعليهم سراويل الوشى حتى أنتنوا ثم حفرت لهم بئر فألقوا فيها !

«ويقول غيره، ولم يكن بعيدًا عن هذا كله هو الآخر، لقد صلبوا فى بستانه حتى تأذى جلساؤه بروائحهم، فكلموه فى ذلك فقال : والله لهذا ألذ عندى من شم المسك والعنبر».

ويمضى المؤلف يحدثنا عن هذه النفس المريضة بالانتقام،

فيحدثنا عن رد فعل السفاح، لما أمر به من قتل وتقتيل، وترويع لبنى أمية، بصورة مرضية حادة فيقول:

ولقد مرضت نفس أبى العباس مرضًا متصلاً، لم يشفها منه هذا الذى كان من قتل تسعين رجلاً، فشددوا الأمن فى جواره، ولم يشفها منه قتل سليمان بن هشام بن عبد الملك، وهو مستوثق منه بحرمة الضيافة.، بل لقد فشا هذا المرض فى نفس أبى العباس كلها فإذا هو مريض كله لا مكان للسلامة من نفسه يأمر بنبش قبور بنى أمية بدمشق فينبشون قبر معاوية بن أبى سفيان بعد ما يربو على نصف قرن من موته، فلا يجدون إلا هباءً

ويأمر بنبش قبر يزيد بن معاوية، بعد ما يربو على نصف قرن من موته، فلا يجدون فيه إلا حطامًا كأنه الدمار. ويأمر بنبش قبر عبد الملك بن مروان، بعد نحو نصف قرن من موته فيجدون فيه جمجمة .

ويأمر بنبش قبور الخلفاء جميعًا فلا يجدون فى القبور إلا العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك، فقد وجدوه صحيحًا فى قبره لم تبل منه إلا أرنبة أنفه !

وهنا أحب أن تسمع معى ما يرويه الرواة فيقولون:

«إنه ما كان يظفر بتلك الجثة كاملة حتى أمر بضربها بالسياط ثم أمر بها فصلبت، ثم أمر بها فحرقت، ثم أمر بها فذريت فى الريح».

ولقد اقترفت أيدى الأمويين شيئًا من هذا الإثم وذلك

التنكيل، ولكن اقترفوه ليرهبوا به الثائرين من حولهم، فمضوا مع غدر يقوم لهم حجة، ولكن أبا العباس اقترفها وليس بين يديه غدر يقوم له حجة، ليس بين يديه ثائرون أشبه ثائرين يرهبهم، ولكنه يطفىء ثائرة نفسه وثائرة غيظه، وهكذا تتبع أبو العباس بنى أمية أولاد الخلفاء وغيرهم، فلم يفلت منهم إلا رضيع أو هارب، واستصفى أموالهم كلها كأنها غنيمة سائغة له، وإذا هو بعد هذا طيب النفس قرير العين ينشد:

بنى أمية قد أُفنيت جمعكم

فكيف لى منكم بالأولى الماضي

يطيِّب النفس أن النار تجمعكم

عوضّتم من لظاها شر معتاض

منيتم لا أقال الله عثرتكم

بليث غاب إلى الأعداء نهَّاض

«وكأنى بهذا السفاح المريض النفسى كان بحاجة إلى من يفثأ غضبه، ويسكن مرضه، فيرده إلى شىء من الهدوء والسلامة وكأنى بهذا السفاح المريض لو رزق هذا المسلك وذلك المسكن لمرت حياته دون تشيع فيها تلك الأوزار الثقال .. «.

ويورد المؤلف إبراهيم الإبيارى الكثير من الحكايات،

والمواقف لهذا الخليفة المريض بالانتقام والتشفي، ما لا يمكن أن يتصوره إنسان.

خليفة مريض!!

والمشكلة إنه يأمر فيطاع، وليته يأمر بأمور يتقبلها العقل أو المنطق، ولكنه يأمر بأمور تتنافى مع شرع الله، وتتنافى مع الأعراف والتقاليد والشهامة العربية، وما فعل ذلك إلا أنه لم ينصحه أحد أن يكف عن أفعاله غير المعقولة، ولم يقل له أحد حتى من أقاربه وأعوانه، إن ما يفعله يتنافى مع الإسلام ومبادئه، فلا الإسلام أمر بقتل وإرهاب أناس بلا ذنب ارتكبوه، وكل جريرتهم أنهم من بنى أمية !!

ولا الإسلام أمر بالتمثيل بجثث من ماتوا ودفنوا تحت التراب من سنوات تربو على نصف قرن!!

ولا هو بدأ حياته بالتسامح الذى دعا إليه الإسلام، بل بدأ حياته بالمجازر والإرهاب، وقتل الناس بلا ذنب ولا جريرة.

ولم يتذكر هذا السفاح أن الرسول الكريم ﷺعندما دخل مكة فاتحًا، وهى التى أخرجته، وهى التى عذبت أنصاره من المسلمين، عندما دخلها فاتحًا، وقال لهم :

– ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟

فقالوا له :

– أخ كريم وابن أخٍ كريم .

فعفا عنهم جميعًا، وبدأ معهم صفحة جديدة، ومن هنا دخلوا فى دين الله أفواجا !

لم ينتقم الرسول العظيم من أحد من الذين أخرجوه من بلده، وأخرجوا معه كل من آمن بدينه، ومع ذلك لم يجدوا منه إلا الصفح الجميل.

لقد أعطى هذا السفاح صورة سيئة عن الإسلام فى العالم، حتى أننا نجد «أتنونى ناتنج» فى كتابه « العرب : تاريخ الحضارة» الذى ترجمه محمود مسعود، يكتب عن هذه الفترة من تاريخ العرب، ويبرز ما فعله هذا السفاح .

وأتنونى ناتنج هذا كان وزيرًا فى حكومة أتنونى إيدن، الذى استقال من منصبه، عندما وقع الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦م، وكان وزيرًا للشئون الخارجية، ولم يغفر له اليهود ذلك فطاردوه، ولكنه لم يرضخ لابتزازهم، ووقف بجانب الحق العربي، وأصدر كتابه (العرب) وقص فيه تاريخ العرب ابتداء من العصر الجاهلى إلى العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦م.

هذا الكاتب المحايد المنصف للحق العربي، عندما تناول فترة الحكم العباسي، تحدث عن الإرهاب الذى حدث للناس من خلال حكمهم، وألقى الضوء على بعض هذه المظالم، ولخص هذا فى حكم قليلة ولكن لها دلالات بالغة عن القسوة حين تسود، وعن الإرهاب عندما يضرب البلاد فى فترة تاريخية معينة، وكيف يكون ذلك بقع سوداء فى ثوب

الحضارة العربية، إنه يقول:

«..وقد شرع نظام الحكم الجديد الآن فى استئصال كافة آثار الحكم البائد، فأخذ يتعقب البقية الباقية من الأسرة الأموية، ويذبحهم ذبحًا.

وقد دعيت جماعة منهم إلى مأدبة أقامها عبد الله بن على عم الخليفة الجديد وقتلوا تقتيلاً أثناء المأدبة!

واحد فقط من أعضاء الأسرة التى حكمت الشام معظم المائة عام الأخيرة استطاع الإفلات، هو عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام، الذى فر إلى أسبانيا وفيها أقام مسجدًا للأمويين نافس فى أبهته وثقافته بلاط هارون الرشيد المشهور، بل إن الموتى لم يتركوا فى سلام، فقد نبشت رفات الخلفاء الأمويين من قبورها وانتهكت حرمتها، وأحرقت عظام سليمان وجثمان هشام بعد جلده ثمانين جلدة!

والواقع أن الخليفة الجديد الذى لقب نفسه فى خطبته الأولى بلقب السفاح وعمه عبد الله، بدا وكأنهما يتنافسان فى القسوة والانتقام.

ولأول مرة فى تاريخ العرب، اشتمل أثاث قاعة الاستقبال فى قصر الخليفة حصيرًا من الجلد استخدم كبساط للسياف الذى أصبح يقف دائمًا على أهبة الاستعداد بجانب عرش مولاه!

وقال عن سبب انهيار الخلافة الأموية:

وعلى الرغم من روح الحماسة التى حارب بها جيش أبى مسلم والاستجابة الفورية من جانب الجماهير الفارسية والعراقية للثورة العباسية، فإن هذا الإنجاز ما كان يمكن أن يتحقق لولا أن الأمويين قد دمروا أنفسهم إلى حد كبير قبل رفع الرايات السوداء، فإن الفساد كان قد حل منذ عهد سليمان البدين المبتذل، وغدت المادية والجشع تنخران فى كيان الخلافة وتستنزفان قواها. وبتدفق الغنائم والكنوز من كافة الأرجاء تخلى الأمويون عن أساليب الحياة الصحراوية الخشنة التى كان يحياها آباؤهم، ونسوا التعاليم الروحية للإسلام، وانغمسوا انغماسًا كليًا فى شرب الخمر، والميسر، وسباق الخيل، والقنص بالكلاب السلوقية والفهود، بل إن الزنا الذى كانت عقوبته الموت أصبح شائعًا فى الشام، وغدت المواخير تجارة رائجة بما يجلب إليها من الجوارى من سبايا الحرب، من يونانيات وفارسيات وتركيات وإفريقيات وإسبانيات، بل قيل فى هذا إن الوليد الثانى كان يستحم بانتظام فى بركة من الخمر!!

بيد أن الترف والانحلال لم يكونا وحدهما السبب فى توهين عزيمة الأمويين وإضعاف إرادة المقاومة عندهم وتيسير الأمور أمام العباسيين، فقد كانت سياسة (فرّق تسد) أو الإيقاع بين العرب من أهل الشمال وأهل الجنوب.

وبالطبع فقد سارع العباسيون يبينون للقبائل كيف كان يجربون استخدامهم لاستدامة سيطرة الشاميين عليهم.

وإلى جانب هذا كان الأمويون قصار النظر إلى حد بعيد فى

تمسكهم بنظام طبقى كان فيه العرب هم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، والموالى فى وضع المواطنين من الدرجة الثانية.

وقد أدى هذا إلى إثارة الحفيظة والمرارة فى نفوس الموالى من أبناء العراق وفارس، وجعلهم أداة طيعة لأية حركة ثورية، ولاسيما أنهم كانوا أكثر ثقافة بحكم اتصالاتهم السابق بالحضارتين البيزنطية والفارسية.

ويحدثنا «أنتونى ناتنج» يعد ذلك عن قيام الخوارج بالثورة على الحكم العباسي، لأنهم يريدون أن يكون الحكم على أساس الشوري، وليس على أساس فردى مستبد، مما دفع أبا مسلم الخراسانى إلى قتالهم والتنكيل بهم، وقيل إنه ذبح خمسين ألفًا منهم، وكان واليًا على خراسان .

و... مرض أبو العباس.، الملقب بالسفاح.. ومات بالجدرى ونودى بأبى جعفر خليفة ملقبًا بالمنصور .

★★★

ويورد المؤرخون الكثير من صور الإرهاب الذى سادت العصر العباسي، وكيف كان ضحية هذا قتل أبى مسلم الخراسانى نفسه، كما استطاع أبو جعفر المنصور محاربة العلويين وأعدم زعماءهم!

ونحن نعرف أن الخلافة العباسية عاشت مايقرب من خمسة قرون، تعاقب فيها خمسة وثلاثون من الخلفاء العباسيين، وظلت الخلافة العباسية حتى بعد ضعفها وتوالى الخلفاء على الحكم – يحكم باسمها العديد من بلدان العالم الإسلامي، إلى

أن زحفت جيوش التتار وحطمت بغداد، وقتل آخر الخلفاء العباسيين، عندما تقدمت جحافلهم بقيادة هولاكو خان .

★★★

إن صورة السفاح وما فعله بالناس، وإرهابهم، وقتلهم بلا مبرر إلا إرضاء حاجة فى نفسه المريضة، قدمت صورة بالغة السوء لهؤلاء الذين حلوا محل الأمويين، فلم يكونوا فى صورة أجمل من صورة خلفاء بنى أمية، لأنهم لم يتورعوا أن يقدموا صورة قاتمة لهذا الحكم الذى استبشر به الناس خيرًا، فإذا بالناس لا يرون إلا الخوف والترويع والإرهاب.

ولم يكن السفاح وحده هو الذى روع الناس، بل كان ولاته على الأقاليم بنفس القسوة وكيف لا والناس على دين ملوكهم كما يقولون.

والصورة كانت تتغير تمامًا لو دعا السفاح وهو قد تمكن من الحكم، وتمكن من بسط نفوذ العباسيين على البلاد – أن يبسط سلطان ما جاء به الإسلام وتمكين ما نادى به الإسلام من قيم العدل والاستماع إلى ما يريده الناس، وعمل بالشورى والحكمة، لو حدث هذا لاستطاع أن يجمع الناس حوله ولأحبه الناس، وعملوا معه على إرساء قواعد ملكه، والانطلاق لنشر الحضارة الإسلامية فى مختلف أرجاء العالم..

إنه كما يقول إبراهيم الإبيارى فى كتابه «قيام الدولة»:

«من أجل هذا تعب السفاح فأتعب الناس ولو رد إلى غيرها

لاستراح وأراح الناس، ولكن الأمر كان على كل حال أعصى على السفاح، فهو لم يكن للناس أن يدلوا فيه برأى فيدينون بهذا الرأى ويعملوا له، وإنما كان الرأى للسفاح وليس للناس فيه شىء، فكان هذا الهيج الذى استقبله السفاح، وكان هذا الاضطراب الذى لم يملك فيه السفاح غير أن يكون سفاحًا.

ولقد كان يمكنه أن يكون سفاحًا عامًا وبعض عام، ثم يرجع إلى الرأى والحكمة، ولكنه أبى إلا أن يكون عنيفًا أيامه كلها باطشًا حكمه كله .

وهكذا كتب على السفاح أن يجمع الناس على خوف وأن يقضى على فتنتهم مسرفًا عليهم وأن يمضى بعد أربع سنين من هذا الحكم القاسى ليخلف هذه الدولة الناشئة التى أوشكت أن تخلص من المخالفين، والتى أوشكت أن تستجيب للعباسيين عن ضعف وخوف، ليتسلم تقاليدها من بعده أبو جعفر المنصور التى أوشكت أن تخلص من المخالفين، والتى أوشكت أن تستجيب للعباسيين عن ضعف وخوف، ليتسلم تقاليدها من بعده أبو جعفر المنصور.

وفى عهد المنصور قتل أبو مسلم الخراساني، الذى كان من أهم أسباب قيام الدولة العباسية، وقد أسرف أبو مسلم فى قتل الناس هو الآخر قبل أن يلاقى حتفه على يد المنصور.

فقد أبقاه المنصور بعد حوار طويل بينه و بين أبى مسلم،

يؤنبه حينًا، ويسخر منه أحيانًا، ويستمع إلى حجج أبو مسلم فى دعاته عن نفسه بلا اكتراث، بينما كان أبى مسلم يظهر الشجاعة فى مواجهة المنصور حينًا، ثم يلين وتخور قواه خوفًا عليه، فيذل نفسه للمنصور، ويطلب منه العفو، وعندما كان المنصور يأمر بقتله، فخرج الحرس من وراء الستر، يضربون أبا مسلم حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، بينما وقف المنصور أمام الجثة وهو يردد مبتهجًا :

زعمت أن الدّين لا يقتضي

فاستوفْ بالكيل أبا مجرم

سقيت كأسًا كنت تسقى بها

أمرَّ فى الحلق من العلقم

★★★

وتمضى الأيام، ويتوالى حكم الخلفاء العباسيين، فترتفع الدولة حينًا، وتزدهر الحضارة الإسلامية حينًا آخر، ويظهر فلاسفة كبار كابن سينا الذى زاوج بين أرسطو وأفلاطون وبين الإسلام. وكذلك الفارابى الذى عمل على تطوير النظريات السياسية والفلسفية لأفلاطون وأرسطو وتطبيقها فى الحياة، والكندى هو أول فيلسوف عربى كتب فى الطب والموسيقى والرياضيات، كما تقدم علم الفلك فى عصرهم وخاصة فى عصر المأمون، وأسماء كثيرة ظهرت فى عالم الأدب والفكر

والثقافـة.

يقـول أنتونـى ناتنـج متحدثًـا عـن الحضـارة فـى العصر العباسـى وتألقهـا وبدايـات انهيارها:

«.، تلـك وتلـك كثـير، هـى المعـالم البـارزة فـى عصـر التنويـر والمعرفـة الإسـلامي، الـذى بـدأ فـى أوائـل عهـد الخلافـة العباسـية وكان مبعـث إلهـام الثـورة العلميـة فـى أوربـا فـى القـرن السـابع عشـر.

ولم يسـبق لحاكـم عربـى أن عمـل علـى تشـجيع وتقـدم الرقـى الثقافـى مثلمـا عمـل الخليفـة المأمـون، وعندمـا توفـى وهـو فـى الثامنـة والأربعـين بالتيفـود كانـت البـلاد تنعـم بالأمـن والرخـاء.

وقـد يذكـر النـاس هـارون الرشـيد عصـره بتألـق وأبهـة ألـف ليلة وليلـة، ولكـن عصـر التفـوق والسـيادة قـد اسـتهل بأبـى جعفـر، ثـم نضـج فـى عهـد المأمـون، حتـى أضحـت عاصمـة الخلافـة أعظـم مركـز للثقافـة والعلـم والـترف فـى العـالم فـى وقـت كان فيـه قـادة أوربـا لا يسـتطيعون حتـى كتابـة أسمائهـم، ومـن المؤسـف أنـه فـى غضـون أقـل مـن سـبعين عامًـا بعـد وفـاة المأمـون، وصـل تفـوق العباسـيين السياسـى إلى منتهـاه، وسـارت الخلافـة مـرة أخـرى فـى طريـق التدهـور.